قراءة هادئة في «سيرة» هائجة
الدكتور عبد الرحمٰن بدويّ بين المغالاة والمغالطات

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ(*)

صدر في مطلع السنة الجارية، عن المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر ببيروت، كتاب للدكتور عبد الرحمٰن بدويّ بعنوان سيرة حياتي، في جزءين أوّلَين (٣٨٢+٣٨٤ صفحة). وما إن وقع المجلّدان في يدنا حتّى استبشرنا خيرًا لما عُرف به مؤلّفهما من وفرة في الإنتاج وخبرة في التدريس، وشرعنا في المطالعة لا سيّما أنّ أدب السيرة يندر بالعربيّة وهو على العموم جليل الفائدة. ولكن سرعان ما أصابتنا خيبة أمل كبيرة لكثرة ما في الكتاب من سلبيّات، تطغى على ما يتخلّله من حسنات.

فالرجل، على ما قلنا، صاحب اطّلاع واسع، وأورد في كتابه أخبارًا كثيرة هي خلاصة السنوات العديدة التي أمضاها في مصر والبلدان الأخرى يدرّس ويلقي المحاضرات ويؤلّف عشرات الكتب ويحقّق في ميادين الفكر. ولا شكّ ني أنّ ما أورده من مشاهدات وملاحظات غنيّ بالمعلومات، عظيم الفائدة. فالدكتور بَدويّ عمل في أقطار كثيرة، متنقّلًا بين وطنه الأمّ ولبنان وسورية وإيران وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا وسويسرا وإنكلترا والولايات المتّحدة، وسواها. ولكن، إذا استثنينا ما نستنتجه من معلومات، نبقى متعطّشين إلى ما يتعدّى الخبر

(*) مدير مجلّة المشرق ودار المشرق.

المحض، بالإضافة إلى ما اعتور السرد من شوائب، خصوصًا في الأحكام التي أطلقها المؤلِّف زورًا وجورًا.

أمّا في أنّ الأخبار الواردة في الكتاب لم تروِ ظمأنا، فلأنّ مدوّنها اقتصر، إلّا في ما ندر جدًّا، على السرد. إنّ المؤلِّف رواية أحداث، تتوالى فيها التواريخ والماجريات خارجةً من منكّرةِ مصنّفها وثائقَ ترسم الآنيّات دونما الغوص بجدّيّة على عميق المعاني تحليلًا وتفهّمًا. فإذا ما جاء البدويّ، مثلًا، على ذكر مغامراته الغاطفيّة - وما أكثرها - في فرنسا أو هولندة، راح يسمّي صديقاته وعلاقاته العابرة بهنّ، مخبرًا كيف كان يسعى معهنّ إلى إشباع «شهوته» - والكلمة له - أو التحايل لاستراق القبلات من بعضهنّ على غفلة ممّن كانا يصطحبانهم للتمويه، وفي كلّ ذلك لا يخرج عن مجرّد الخبر، حتّى لو كان هذا الخبر تافهًا (أطلب ١ : ٣٠٧؛ و١٨٧؛ ١٨٨؛ ٣٢٠). فما أبعدنا عمّا نطالعه، مثلًا، في اعترافات جان جاك روسّو الذي لا يأتي الخبر عنده إلّا وتنجلي من خلاله الدوافع والكوامن والمشاعر والتأثيرات!

وإذا ما انتقلنا إلى آرائه في الأحداث وأحكامه التي يطلقها في الناس، راعنا ما في كلامه من قساوة ومغالاة، لا بل من شطط وزور ومغالطات. وإنّه ليصبّ جام غضبه على الكثيرين بكلام جارح، غالبًا ما ينمّ على حقد مُضمَر أو مُعلَن. وإليك بعض الأمثلة:

١ . آراؤه في اليسوعيّين وأصدقائهم

من الطبيعيّ أن يلفت نظرنا هذا الأمر، إذ إنّنا من المعنيّين مباشرةً. إسمعه يوجّه الاتّهام على نحو أقرب ما يكون إلى إذكاء النعرات الطائفيّة. قال (١: ١٦٤): «نظرًا للنجاح الكبير الذي كانت تلقاه محاضراتي العامّة، ونظرًا إلى (. . .) ما شعر به المسلمون من سند علميّ قويّ في شخصيّتي، فقد عمل اليسوعيّون إلى إبعادي من لبنان. فأرسلوا إلى باريس

في صيف سنة ١٩٤٨ صنيعتهم الدجّال الجهول فؤاد أفرام البستانيّ ليتّصل بالمسؤولين في الخارجيّة الفرنسيّة عن العلاقات الثقافيّة. وفعلًا ذهب هذا الأفرام إلى مسيو ماكس، المدير المساعد لإدارة العلاقات الثقافيّة في وزارة الخارجيّة وطالب بعدم تجديد إعادتي لمدرسة الآداب العليا. وبما عُهد فيه من تعصّب أعمى وخساسة نفس راح يزعم لمسيو ماكس هذا (وهو يهوديّ) خطورتي على النفوذ الثقافيّ الفرنسيّ والأوروبيّ وعلى الثقافة المسيحيّة في لبنان». ولكن لم تجرِ الرياح بما اشتهاه اليسوعيّون، فضاعت «دسائسهم» كما قال، ودسائس «عميلهم فؤاد أفرام».

فانظر، رعاك الله، إلى هذه الأحكام وهذه الألفاظ! وهل يُعقل أن يعزف البستانيّ على وتر المسيحيّة أمام إنسان يهوديّ؟ وهل يُعقل أن تكون الدولة اللبنانيّة سمحت لنفسها بإيلاء البستانيّ رئاسة جامعتها الوطنيّة طوال سنوات، إن كان هذا الإنسان «دجّالًا جهولًا، متعصّبًا، خسيسَ النفس»، كما وصفه البدويّ؟

ويتابع، سامحه الله، فيقول إنّ أشدّ ما أوغر صدر اليسوعيّين عليه آنذاك أنّ القائمين بالتدريس في «معهد الآداب الشرقيّة» التابع جامعتهم ببيروت، «كانوا شديدي الحملة على الإسلام بواسطة افتراءات كاذبة مفضوحة ينسبونها إلى بعض كبار المستشرقين حتّى تبدو مسنودة بحجّة علميّة». فمَن يقرأ هذا الخبر يهاله حجم الجريمة التي اقترفها اليسوعيّون المتعصّبون في حقّ الإسلام. فما هي بالتحديد؟ يقول البدويّ موضحًا: «إنّ بعض طلّاب ذلك المعهد جاؤوني وسألوني: هل صحيح أنّ معاوية ابن أبي سفيان، الخليفة الأمويّ والصحابيّ الجليل، قد اعتنق المسيحيّة؟ فقلت لهم: مَن قال لكم هذا الكلام العجيب؟ فقالوا: إنّه الأب لاتور Lator قال لنا ذلك في محاضرة الأمس في «معهد الآداب الشرقيّة» وزعم أنّ ذلك ورد في كتاب الدولة الإسلاميّة وسقوطها تأليف يوليوس فِلْهَوْزِن Julius Wellhausen. وأنا قد قرأت هذا الكتاب قبل ذلك، فقلت لهم: هذا كذب على فلهوزن، فأنا أعرف كتابه هذا جيّدًا، ولو كان فيه خبر كهذا لكان قد لفت نظري ونظر سائر مَن قرأوه. وسأذهب غدًا للقاء الأب

لاتور لكي يبيّن لي من أين استقى هذا الكلام. وفعلًا ذهبت إليه في اليوم التالي في الصباح، وأخبرته بما نُقِلَ إليّ عنه. فجاء بالكتاب وقال هذا الكلام ورد ها هنا - وأشار إلى الصفحة. فقرأتها وإذ بها خالية من هذا تمامًا، وكلّ ما ورد فيها هو أنّه كان معاوية يريد أن يتشبّه بالنظام الملكيّ البيزنطيّ في الحكم؛ لكنّه «لو كانَ قد فعل ذلك لكان عليه أن يعتنق المسيحيّة». فالعبارة في صيغة الشرط الماضي، أي الذي لم يقع مطلقًا ولو كان قد وقع لكان الأمر قد أدّى إلى كذا.

فقرأت عبارة ڤلهوزن في النصّ الألمانيّ وترجمتها له بالفرنسيّة وشرحت معناها وهو تمامًا عكس ما يفهم وما قاله للطلّاب. فتلعثم وبلح وجنح وغصّ بريقه وقال: «معذرة، فإنّي لا أُحسِن الألمانيّة، وقد قرأت العبارة بسرعة، ولم أدرك أنّها في صيغة الشرط الماضي». فقلت له: «هذا الاعتذار لي لا يكفي، لأنّ الأمر يتعلّق بهؤلاء الطلّاب الذين أضللتهم بجهلك باللغة الألمانيّة فيما تزعم. وعليك أن تقرّ بذلك وتصحّح الأمر لهؤلاء الطلّاب في المحاضرة القادمة، وسأحضر أنا هذه المحاضرة لأكون شاهدًا على إقرارك بخطئك هذا». وفعلًا حضرت محاضرته التالية، فبدأها بتقديم اعتذار عن سوء فهمه للنصّ وبشكري أنا على تنبيهي له على ذلك» (١: ١٦٤-١٦٥).

تلكم جريمة المرحوم الأب لاتور، المستشرق الإسبانيّ المسكين. أجل، لقد أخطأ في نظرنا من الناحية العلميّة لأنّه لم يتحقّق من معنى كلام ڤلهوزن. ولكنّ هذه الخطيئة تُغتفر لأنّ هذا الأستاذ كان من دون شكّ صالح النيّة، وأسرع إلى الاعتذار بتواضع يشرّفه وشكَر الذي صحّح غلطه. أمّا خطيئة عبد الرحمٰن بدويّ، فهي في رأينا لا تقلّ عن الأُولى، بل تفوقها لأنّ صاحبها تجبّر وتكبّر وأراد أن يتثبّت من أنّ «المذنب» سيعترف بذنبه، فأذلّ وحقّر مَن لا يستحقّ هذا القدر من الإذلال. فهل بالحقيقة من إساءة إلى الإسلام أن يقال إنّ معاوية اعتنق المسيحيّة؟ وهي مقولة يصعب تصديقها لغرابتها! فبدل التشكيك والانفعال والتهويل، كان بالإمكان أخذ المسألة بالتبسّم أو، في أسوإ الأحوال، ببعض الإشفاق

على «بساطة» لاتور، مع تنبيهه إلى شططه باحترام كما هو معهود بين العلماء الزملاء. ثمّ، من المعلوم أنّ مَن أقرّ بذنبه غُفِر له، وجلّ مَن لم يخطئ. ونحن نعرف إنسانًا، والدكتور بدويّ أدري به من سواه، عمل في مجال العلم حتّى ذاع له بعض الصيت في أوساط الجامعيّين، نَشَر في أحد أيّامه السود كتاب تهذيب الأخلاق الذي كان معروفًا لدى العلماء آنذاك أنّه ليحيى بن عديّ، فنسبه إلى ابن الهيثم (!) وشتّان بين الرجلين! وهل تنهال عليه ثلبًا وتحقيرًا؟ بل نقول: سامحه الله، فلكلّ جواد كبوة ولكلّ عالم هفوة.

ويتابع الدكتور (ص ١٦٥-١٦٦): «وأمثال هذه الحادثة كثير جدًّا» (كذا، وبدون أيّ إثبات!). «فتحتَ ستار الشخصيّات العلميّة الكبيرة من المستشرقين، كانَ هؤلاء المدرّسون اليسوعيّون لا يتورّعون عن اختراع أبشع الأكاذيب والافتراءات ضدّ الإسلام» (نقول أيضًا: أين البراهين؟ وما للعبارات المعتدلة!) «ولم يكن الطلّاب المساكين، ولا أحدٌ من المشتغلين بالعلم في بيروت، قادرًا على كشف هذه الأكاذيب أو الافتراءات» (نقول: فقط عبد الرحمن بدويّ كان له من العلم ما جعله يكتشفها، أمّا الباقون فمن الواضح أنّهم كانوا جهلة!؟). «ومن هنا كانت حيرة الكثير من الطلّاب المسلمين، والشيعة منهم بخاصّة، في أمور دينهم. وهو ما يفسّر - جزئيًّا على الأقلّ - تحوُّل بعض هؤلاء الطلّاب الشيعة إلى المسيحيّة: مثل عفيف عسيران، وم. تحت تأثير شارل مالك، وتحوُّل غيرهما إلى المسيحيّة عن طريق اليسوعيّين ممَّن لا تحضرني الآن أسماؤهم». نقول: إنّ العالم الحقّ، لا سيّما مَن كانت له ذاكرة الدكتور بدويّ، عليه أن يؤيّد كلامه بالبرهان، فلا يشير بالغمز واللمز إلى مَن لا يستطيع ذكره. ثمّ إنّ الاسم الثاني الذي ذكره بالحروف الكاملة - في حين اكتفينا بالحرف الأوّل احترامًا للخصوصيّات - لم يكن لليسوعيّين في أمره علاقة، كما أقرّ بذلك الدكتور بدويّ نفسه (!). ونحن نعرف تمامَ المعرفة أنّ الأوّل، المغفور له الأب عسيران، عرف المسيحيّة وقرّر أن يعتنقها بعد عمليّة بحث طويلة قادته من الإلحاد إلى الإسلام فإلى الرغبة في اتّباع

تعاليم الإنجيل التي استمالت قلبه وعقله[١].

كما تحدّى حضرة الكاتب المدقّق أن يبرز اسمًا واحدًا ممّن دفعهم اليسوعيّون إلى اعتناق المسيحيّة. ويا ليت سيادته طالع ما كتبه منذ أربعة أشهر أحد الدبلوماسيّين المسلمين، الذي درس على اليسوعيّين طوال ١٣ سنة، فشكر أساتذته لأنّهم علّموه، وهم مسيحيّون، كيف يكون مسلمًا حقًّا يحبّ دينه ويخلص له[٢].

وبالعودة إلى «معهد الآداب الشرقيّة» الذي ثارت ثائرة البدويّ على أساتذته لأنّهم أعداء الإسلام، على حدّ قوله، فقد أمعن في ثلبه ووصفه بأنّه «ما يُسمّى معهد الآداب الشرقيّة وهو مسخ مزيّف من «معهد» ومن «آداب شرقيّة». فمستواه العلميّ في غاية الهبوط، ومستوى التدريس فيه منحطّ للغاية، إذ ليس بينهم أيّ واحد يحمل مؤهّلات للتدريس في معهد عالٍ أو كلّيّة جامعيّة. وأعجب العجب - لكنّ لبنان كلّه عجائب! - إنّه صار بعد ذلك يمنح درجة الدكتوراه! إي والله درجة الدكتوراه. وهي لا تساوي ربع ليسانس» (ص ١٦٤)!

لا، يا سيّدي، ليس هذا المعهد «مسخًا مزيّفًا»، بل هو صرح تليد عريق يتهافت عليه الطلّاب بالمئات من المحيط إلى الخليج ليتخرّجوا منه متشرّفين بحمل شهاداته العليا، بما فيها الدكتوراه، وأيّ دكتوراه! فنحن نشهد على مستوى أطروحاته الرفيع جدًّا بعد أن ناقشنا عددًا منها غير مساومين، مع زملائنا، على جودتها وفرادتها. وإن لم يصدّقنا حضرة الدكتور، فليراجع سجلّات المعهد وأعداد مجلّته حوليّات وما تدرجه من جداول الخرّيجين ومختصرات أطاريحهم.

أمّا عن الأساتذة الذين لم ينالوا حظوة في عيني الدكتور العلّامة، فنذكّره بما قاله هو نفسه في أعلاه: إنّ المدرّسين اليسوعيّين في المعهد هم

(١) أطلب كتاب عفيف صيران، مَن هو؟ بيروت، ٢٠٠٠، حيث عدّة شهادات أدلى بها صيران نفسه في مسيرته الروحيّة.

(٢) أطلب *L'Orient-Le Jour*, Beyrouth, 24/2/2000, p. 4.

«شخصيّات علميّة كبيرة من المستشرقين»، ولا حرج إنْ ذكّرناه ببعضهم المتوفَّين، وهم أشهر من نار على علم. فمن اليسوعيّين، شيخو، وصالحاني، وخليل إدّه، ولامَنس، وألّار، وفلَيش، ودالڤِرْني، ورينه مُوترد، وبولس مُوترد، وطالون، ومصريان، وجميعهم من كبار الاختصاصيّين العالميّين بالآداب واللغات الشرقيّة والتاريخ والآثار والفلسفة والإسلاميّات. ومن معاوني الرهبان: العلّامة الموسوعيّ فؤاد أفرام البستاني - ولكنّه في نظر الدكتور بدويّ جاهل دجّال - والعلّامة المدقّق لغةً وأدبًا الدكتور جبّور عبد النور، والقاضي حسن قبلان، وهو الوحيد الذي نال حظوة في عيني الدكتور بدويّ (١ : ١٦٦). وإنّنا، خشية الإطالة، نحيل حضرته على ما ورد في صحيفة نهار الشباب البيروتيّة[٣] ليقرأ ما حقّقه «معهد الآداب الشرقيّة» في تاريخه المجيد.

٢. آراؤه في بعض رجالات الدين والدنيا

ولم يوفّر صاحب السيرة رجال الدين المسلمين، فقال في بعضهم: «وما أصابني من كيد اليسوعيّين المسيحيّين قد أصابني مثله من كيد الأزهريّين المسلمين!!» (١ : ١٦٦). وذكر لتوّه شيخًا يدعى الشيخ طيرة، جازمًا أنّه كان «لا يعرف غير الوشاية والدسّ والوقيعة. أمّا علوم الدين فهو عارٍ منها تمامًا»، وشكا الأزهريّين أمثالَهم الذين قاوموه لأنّ محاضراته العامّة «كانت تَلقى ذلك الإقبال العظيم» إذ كانت «تقوم على المنهج العلميّ الدقيق والتحليل العقليّ المستقيم»، فإذ «بارت تجارة أولئك الأزهريّين في الأوساط الإسلاميّة»، «لم يجدوا وسيلة للتخلّص منّي غير الوشاية بي عند المفتي».

غريب أمر الدكتور بدويّ. ألم يفكّر في ما كان سبب اتّفاق المسلمين والمسيحيّين على محاولة «التخلّص» منه كما يقول؟

وهذه الأحكام المتشدّدة المتطرّفة - إن لم نقل الجائرة - في حقّ

---

(٣) تاريخ ٧/٣/٢٠٠٠، ص ٣٤.

عدد وفير من رجال الدين، كان لها مثيلها في رجال السياسة (أطلب كلامه في عبد الناصر على الصفحات الأخيرة من الجزء الأوّل)، وفي كبار الأدباء. فممّا يؤسف عليه أنّه لم يتورّع من أن يكرّر هجماته على فؤاد البستاني ناعتًا إيّاه مرّةً بـ«هذا الأفعوان الهرم الخبيث» (١ : ١٧١)، وواصفًا العلّامة قسطنطين زريق بأنّه «هذا المسيحيّ المتّجر بالعروبة والممكّن للمسيحيّة في الجامعة الأميركيّة» (١ : ١٧١). أهذا كلام ينطق به دكتور في الفلسفة يُفترض فيه أن يكون محبًّا للحكمة والروح العلميّة والحقيقة، ويعلن متباهيًا، على ما ذكرنا منذ قليل، أنّ مواقفه «تقوم على المنهج العلميّ الدقيق والتحليل العقليّ المستقيم»؟

ومن الأدباء الذين طالتهم سهامه المسعورة الدكتور أحمد أمين الذي وصفه «رجلًا حقودًا ضيّق الأفق تأكل قلبه الغيرة من كلّ متفوّق» (١ : ١٥٣)، والدكتور زكي نجيب محمود الذي قال فيه ما لا يجوز أن يقوله منصف: «راح يكتب مقالات أدبيّة سطحيّة في مجلّة الرسالة، معظمها تلخيص بسيط ساذج لكتاب ول ديورنت قصّة الفلسفة (. . .) ولم يكن له من الإنتاج إلّا مقالات بسيطة في المجلّات الأدبيّة – تمامًا كما يفعل الآن في صحيفة الأهرام – مستواها لا يزيد على مستوى طالب في المرحلة الإعداديّة» (١ : ٢٢٧). فكيف يفسّر الأستاذ بدويّ أن يكون زكي نجيب محمود نال جائزة الدولة المصريّة التقديريّة في الأدب (١٩٧٥) وجائزة الجامعة العربيّة «للثقافة العربيّة» من تونس (١٩٨٤)، ودرجة الدكتوراه الفخريّة من الجامعة الأميركيّة بالقاهرة (١٩٨٥)، وكان قد حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن في العام ١٩٤٧، وكوفئ بسوى ذلك من الألقاب والجوائز؟ هل جميع الذين كرّموه على هذا النحو، أغبياء؟ أم أغمضت عينا الدكتور بدويّ فلم يعُد يرى في «خصومه» غير السواد؟ ونترك للمطالع أن يكتشف هو نفسه كيف وصف دكتورنا المنصف الكثيرين من رجالات الأدب، من المصريّين مثلًا، في أماكن أُخرى من كتابه (١ : ١٥٥–١٥٧).

٣. مواقفه المتناقضة أو المغلوطة في عدد من الشؤون

وإن كان الدكتور بدويّ يُزعج القرّاء المنصفين بسبب قساوة أحكامه على الأشخاص وعنف الألفاظ التي يتفوّه بها، واستسلامه للأهواء الشخصيّة والانفعالات، فإنّه يبتّ عددًا الأمور، ومنها الكثير الذي ليس من اختصاصه، وكأنّه الحَكَم الفاروق أو العالم المعصوم من كلّ خطأ.

من ذلك أنّه راح يغمز من قناة الفاتيكان وسياستها في شأن القدس، بكلمات أقلّ ما يقال فيها إنّها جارحة جائرة:

«أرجو ألّا تتوقّع الكثير من سياسة الفاتيكان فيما يتّصل بمشكلة القدس (...) فسياسة الفاتيكان مرنة، ملتوية، ترضى الأطراف المتعارضة حسبما تمليه مصلحتها الخاصّة»! هذا هو جزاء سعي الفاتيكان الدائم المخلص إلى إحلال السلام العادل في منطقتنا، ودفاعها دومًا وجهرًا عن حقوق الفلسطينيّين! وإذ يأخذ حضرة الدكتور على الفاتيكان أنّه حاور الإسرائيليّين أيضًا، فقد نسيَ أنّ الفاتيكان لم يعترف بدولتهم إلّا بعد مرور خمسين سنة على اعتراف معظم دول العالم، إن لم نقل جميعها، بها، وبعد أن قام الصلح بينها وبين عدد كبير من الدول العربيّة التي حاربتها قبلًا، وبعد أن بوشرت المباحثات بينها وبين الدولتَيْن العربيّتَيْن الأخيرتَيْن المعنيّتَيْن بالصلح، لبنان وسورية.

ومن ذلك أيضًا تشكيكه في عمليّة الحوار بين المسيحيّة والإسلام على نحوٍ مبالغ فيه جدًّا. ففي حين نوافقه أنّه من الصعب التحاور في شؤون العقيدة، ومن الواجب «ترك كلّ دين يعنى بشؤونه هو وحده» (٢: ١٨٣)، نختلف معه في تقويم نتائج مسيرة الحوار التي حاول الفاتيكان إطلاقها منذ منتصف الستّينيّات. أجل، لم تكن تلك البداية على ما يرام، لا سيّما من جهة مفهوم المسيحيّين لها، ولكن لا نقبل بما أورده الدكتور إذ قال: «لقد أدّى تعرّض المجمع الفاتيكانيّ الثاني للعلاقة بين الإسلام والمسيحيّة إلى عكس ما نصحتْ به الفقرة الأخيرة في الإعلان (المعنون «العلاقة بين الكنيسة وبين الديانات غير المسيحيّة»)، وإنّ نشاط اللجنة

التي شكّلها البابا لهذا الغرض «خفّ تدريجيًا حتّى صار في خبر كان (...) وتحقّق بذلك ما تنبّأنا به» (٢: ١٨٢). قلنا: لا نقبل بموقف الدكتور بدويّ هذا لأنّ الحوار، خلافًا لما ذكر، خطا خطىً حثيثة، وتوضّحت السبل إلى ولوجه وما ينبغي أن يُفعل لإحيائه وما ينبغي أن لا يُفعل، وإنّ الاحترام المتبادل يسود الآن الطرفين على جميع المستويات، لا سيّما أعلاها، علمًا أنّنا نسمع، بين الفينة والفينة، أصوات بعض المتشدّدين ترتفع، ولكنّها لن تعيق مسيرة التقدّم وحلول شريعة المحبّة بين الجميع.

كما أنّنا لا نقبل البتّة التُهم الباطلة التي أطلقها حضرة الدكتور في حقّ العلماء المسيحيّين الذين عملوا على نشر ما أسماه «الكتب الجدليّة النصرانيّة ضدّ الإسلام». فقد قال، سامحه إله الحقيقة (أطلب ٢: ١٨٢)، ما مختصره: قامت جماعات مسيحيّة تنشر أو تعيد نشر كتب جدليّة نصرانيّة ضدّ الإسلام، وكانت أنشط تلك الجماعات الرهبانيّة اليسوعيّة والآباء البيض. وممّا عابه على الجماعة الأولى ما يقوم به معهدها الشرقيّ البابويّ في روما ومعهدها الشرقيّ في بيروت (يعني معهد الآداب الشرقيّة السابق ذكره)، وسلسلة «نصوص وبحوث» التي تصدرها مطبعتهم الكاثوليكيّة في بيروت. وهنا يؤسفنا القول إنّ حضرة الناقد، إذا ما اكتفينا بالنظر إلى ما يختصّ بالجماعة اليسوعيّة وحدها، ليس على علم البتّة بما تقوم به جامعتهم وما ينشرونه في سبيل تلاقي المسلمين والمسيحيّين. فقد بيّنّا في عدد سابق من المشرق[٤] تأسيس اليسوعيّين وأصدقاء لهم مسلمين أوّل مركز للدراسات الإسلاميّة – المسيحيّة في لبنان والشرق (ولربّما في العالم) وذلك في خضمّ الحرب اللبنانيّة وما واكبها من نزاعات طائفيّة. فلا داعي إلى التكرار.

أمّا نشر الكتب «الجدليّة»، فنعجب للتهمة التي وجّهها إلينا حضرة الدكتور. فإن عدنا إلى سلسلة «بحوث ودراسات» (لا «نصوص وبحوث»

(٤) أطلب المشرق، العدد الأوّل من السنة ٢٠٠٠، ص ٢٤٥-٢٦٣.

كما ورد في كتابه) التي شرع في نشرها معهد الآداب الشرقيّة والتي صدر منها حتّى الآن ٧٧ مجلّدًا (فليتأمّل مَن اتّهم هذا المعهد بتخريج الجاهلين)، لوجدنا أنّ خمسة منها فقط عالجت موضوعات تمتّ من قريب (أو بعيد جدًّا) إلى مسألة الجدل، ولكن الجدل بمعناه الواسع المسالم المشبع بالاحترام، وهو بالحقيقة تبيان للعقيدة المسيحيّة يُقدّم إلى المسلمين، أو دفاع مهذّب علميّ عن حقائق لا يقبل بها الإسلام كالتثليث والتجسّد وما إلى ذلك. ونسوق إلى حضرة الدكتور - الذي وجّه إلينا تهمًا عامّة غامضة - عناوين المؤلّفات الخمسة صاحبة الشأن، وجميعها بقلم مختصّين يُشهد لهم بسعة العلم واحترامهم المسلمين عميق الاحترام.

وأوّل هذه الكتب رسالة **أشرف الحديث في شرفَي التوحيد والتثليث** للشيخ الإمام محيي الدين الأصفهانيّ، نشرها في العام ١٩٦٢ المستشرق اليسوعيّ المرحوم الأب ميشال ألّار، وهو الذي نشر، بعد ذلك، في العام ١٩٦٨، كتابًا آخر لأحد فضلاء المسلمين، المتكلّم العلّامة عبد الملك بن عبدالله الجوينيّ (توفّي ١٠٨٥م/٤٧٨هـ)، عنوانه **شفاء الغليل في التبديل**، به يدافع عن المعتقد الإسلاميّ. فما رأي الدكتور بدويّ بهذا اليسوعيّ الذي ينشر باحترام وروح علميّة كتب المسلمين التي «تجادل» المسيحيّين؟

والكتب الأخرى الثلاثة هي: **مجموعة رسائل لبولس الأنطاكيّ أسقف صيدون الملكيّ** نشرها الأب بولس الخوري (١٩٦٤)؛ وكتابان لعمّار البصريّ نُشرا في مجلّد مشترك، هما **كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة** حقّقهما الأب ميشال الحايك، وكلا الناشرين المحقّقين مشهود له بالعلم الرصين والانفتاح والاعتدال؛ وأطروحة للمستشرق اليسوعيّ الأب هانس پوتمان قوامها نصّ المحاورة التي دارت بين البطريرك طيموتاوس الأوّل والخليفة المهديّ، وهي حوار بأسمى ما في الكلمة من معنى، يشعّ منه روح التفاهم والاحترام المتبادل. فشتّان إذًا بين ما ادّعاه صاحب السيرة وما هو الواقع، ويا للمغالطات التي لا تخدع إلّا البسطاء!

سامحك الله يا دكتور. وسامحكَ أيضًا لمّا انتقدتَ الكنيسة الكاثوليكيّة بسبب ما تعلّمه في خلقيّات الحياة الجنسيّة، وكنتَ آنذاك تقذف بما لا تعرف، فقلت (١: ٢٦٥): «وأعْجبُ من هذا تدخُّلهم في مسألة وسائل منع الحمل، حتّى إنّ بابا روما الحاليّ (يوحنّا بولس الثاني) جعلها الموضوع الرئيسيّ في نشاطه البابويّ ومواعظه الرعويّة التي طوّف بها في مختلف بلاد العالم على نحوٍ يدعو إلى أشدّ العجب من هذا البابا الرحّالة السندباد الجوّيّ! ذلك أنّ وسائل منع الحمل لا تقتل كائنًا حيًّا وإنّما تمنع من ولادة كائن حيّ». فعلى كلامك هذا، الذي تُنْزِله صارمًا جازمًا، نعترض من عدّة نواحٍ:

١. ما مسألة منع الحمل الموضوع «الرئيسيّ» في نشاط البابا الحاليّ، بل أحد الموضوعات، وهذا ما يعرفه أبسط الصحافيّين.

٢. تنعت رئيس كنيستنا «بالسندباد الجوّيّ»، وذلك بشيء من السخرية أو الخفّة، وإلّا، كيف نفسّر إقحامك هذه الصفة هنا بدون سبب ضروريّ إلّا التفكّه والتندّر. نرجوك: إحترم المقامات. وكما أنّ المسلم الصادق لن يقبل من أحد، خصوصًا إن كان من غير دينه، أن يتطاول بالنكتة على أحد رؤساء مِلّته، فنحن أيضًا يهمّنا أن تقف عند حدّك لمّا تذكر رئيسًا روحيًّا عزيزًا علينا يحترمه جميع الناس المنصفين.

٣. لا تشاطرنا الرأي في مسألة منع الحمل، وتؤيّد قولك بإعلانك أنّ منع الحمل لا يقتل كائنًا حيًّا بل يمنعه من الولادة. هذا موقفك وأنت فيه حرّ، ونحن نحترم رأيك، ولكن نسألك أن تترك للبابا رأيه لا سيّما أنّ لديه البراهين الصائبة – التي تنظر في كيفيّة منع الولادة – والتي يجدر بك أن تطّلع عليها في مظانّها ولا يَسْمَح لنا المجال هنا بالخوض فيها. وهنا أيضًا نكرّر: ما رأيك لَو قُلنا، على مثالك، إنّنا نعجب أشدّ العجب من موقف أحد كبار العلماء المسلمين في شأن قضيّة من قضايا دينه؟ ألا يحقّ له أن يجيبنا: هذا شأننا، فالزموا حدّكم؟

ولم يكتفِ حضرة الدكتور بهذا القدر من تدخّله في ما لا يعنيه، إذ

إنّه لم يتورّع من خدش مواقف الكنيسة الكاثوليكيّة في مناسبات أُخَر. فلقد سمح لنفسه، في معرض كلامه على فقدان اللغة اللاتينيّة مكانتها في العالم، أن يقول (١: ١١٦): «أمّا اليوم، فما أبأس حالها، حتّى عند رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكيّة نفسها! لقد صار القدّاس نفسه باللغات المحلّيّة! وتلك بليّة أخرى من بلايا المجمع الڤاتيكانيّ الثاني - وما أكثر بلاياه!». يا للجسارة! فليسمح لنا حضرة الدكتور أن نقول له بكلّ صراحة وموضوعيّة إنّه لم يتجاوز حدّه وحسب، بل تفوّه بكلام يقارب السباب. وما دام يفتي في ما هي البليّة، نقول له: إنّ شرّ البليّة ما يضحك، فقد صار الدكتور عبد الرحمٰن بدويّ عالمًا في الطقوس المسيحيّة يملي علينا اللغة التي يجب أن نرفع بها صلواتنا في احتفالات القدّاس. لا يا أستاذنا، إنّنا أعلم منك بشؤوننا، لا سيّما أنّك بعيد عن شعورنا الدينيّ بُعدَ الثرى عن الثريّا. فمن ذلك، مثلًا، لا حصرًا، ما جَمّلك تقول في العلّامة الورع ماسينيون، الذي كنت تشاهده يذهب إلى القدّاس كلّ صباح في السادسة على الرغم من سوء الأحوال الجوّيّة: «فعجبتُ كلَّ العجب من صدور هذا السلوك من رجل عظيم في مكانة ماسينيون العلميّة: كيف يحرص هذا العقل المليء بالعلم على أداء هذا الطقس الشكليّ في أصعب الظروف! ولله في خلقه شئون!» (١: ١٦٢). يمكنك العجب، سيّدي، لأنّك، على الرغم من علمك، لم تفهم أنّ صلاة القدّاس، هي في نظر المسيحيّ المؤمن، لا طقس «شكليّ»، بل فعل محبّة يدفع المخلوق نحو خالقه. وما دَخْل المكانة العلميّة في علاقة الإنسان بربّه؟ وعلى كلّ حالٍ، فالعلم الصحيح لا يُبعد عن الله إلّا أشباه العلماء، لا العلماء الأصيلين الذين يعرفون أنّهم، مهما امتلأوا علمًا - على حدّ عبارتك - يظلّون فارغين ما لم يملأهم مَنْ هو مصدر كلّ علم.

ويمكننا أن نسوق أمثالًا كثيرة تبيّن مدى تهجّم السيّد الدكتور على رموز من رموز المسيحيّين، ولكن ننهي بذكر أمر أخير هو حكمه على موكب دخول البابا كنيسة القدّيس بطرس حسبما شاهده يوم ٢٥ ديسمبر من العام ١٩٦٨: «فكان البابا يمتطي محفّة فاخرة يحملها ثلّة من أروع

وأجمل شباب روما - بينما لا يُرى يسوع يحمله أحد من الناس، وقصارى أمره أن يركب حمارة يتبعها جحش» (. . .) «فكان منظر هذه المحفّة أشدّ المناظر إثارة للنفور والازدراء في نفسي» (٢: ٢٠٢-٢٠٣). وحدث بعد ذلك أن التقى بعض الرهبان وعبّر لهم «عن شدّة امتعاضي من هذا المنظر البغيض المنافي لكلّ ما دعا إليه المسيح - فأجابوا وهم مسربلون بالخجل الوقح: إنّ المقصود بهذه المحفّة هو تمكين الناس من مشاهدة البابا! ذرّة من الحياء أيّها المنافقون»، إلخ. . .

مرّة أخرى نقول: لا ننكر أنّ عادة حمل البابا على المحفّة، مهما كانت الأسباب، غير مستحبّة، وقد كانت من مخلّفات العهود السابقة، إلّا أنّ البابا نفسه الذي شاهده الدكتور بدويّ، بولس السادس، ألغاها إلى غير رجعة، ونحن نهلّل لذلك. ولكن أن يعبّر الأستاذ البدويّ عن رأيه باستعمال وفرة من العبارات الجارحة: الازدراء، الامتعاض، البغيض، الخجل الوقح، عدم الحياء، النفاق. . .، فهذا لا يليق بالمنصف الحكيم الذي يحاول أن يتفهّم أسباب سلوك الناس، وحتّى إن لم يتفهّمها، لا يجرح شعورهم ويخدش كرامتهم. فبأولى حجّة إن هو أخطأ في أحكامه خطأً فادحًا مغايرًا لأبسط الحقائق والعدل كما حصل لحضرة الدكتور إذ قال في البابا: «إنّ البابا يحاول دائمًا محاكاة أباطرة الزومان، وآيةُ ذلك أنّ لقبه هو لقب الأمبراطور الرومانيّ، أعني Pontifex Maximus» (٢: ٢٠٣).

لقد أخطأت جدًّا يا دكتور، فالبابا لم يحاول **دائمًا** محاكاة الأباطرة، والبابا الذي رأيته على المحفّة طلب أن يكون له تابوت من الخشب العاديّ كما يُصنع للفقراء، وأن يوضع هذا التابوت على الأرض يوم الجنازة علامة تواضع. والباباوات، في ليلة ذكرى آلام السيّد المسيح، يغسلون مثله أرجل عدد من الناس تواضعًا.

ثمّ إنّ شرحك عبارة Pontifex Maximus هو خاطئ، ونعجب لذلك لأنّك لم تفهم المصطلح اللاتينيّ هذا كما يتوجّب على مَن وصف نفسه

بأنّه «تفوّق تفوّقًا بارزًا» في اللاتينيّة (١: ١١٥، السطر ٣) وكرّر أنّه «أتقن اللغة اللاتينيّة» (١: ١١٥، السطر ١٥) وعاد فأقرّ بأنّه «تباهى بإتقانه اللاتينيّة» (١: ١١٦، السطر ١١). فعبارة Pontifex Maximus تعني أصلًا الحبر (أي الرئيس الدينيّ) الأعظم، وكانت تُطلق على الكاهن الأعظم قبل قيام الأمبراطوريّة الرومانيّة. ولمّا عظمُ سلطان الأباطرة اتّخذوا لأنفسهم هذا اللقب تعبيرًا عن تقلّدهم السلطات الدينيّة العليا إلى جانب السلطات الزمنيّة. أمّا البابا فلم تُطلَق عليه التسمية إلّا بصفة كونه رجل دين وحسب، تمامًا كما يُسمّى جميع الأساقفة Pontifex، أي أحبارًا بدون أن يكون لتلك التسمية معنى زمنيّ.

وإنّنا لا نعجب أن يصدر عن حضرة الدكتور بدويّ مواقف لا تتفهّم الحقائق الخاصّة بالمسيحيّين، إذ إنّه يناقض حتّى مفاهيم دينه المعروفة لدى القاصي والداني. ففي حين يعلن في غير مناسبة تمسّكه بمعتقده الإسلاميّ تمسّكًا منفتحًا، تراه يعلن إيمانه «بالصدفة» (والكلمة الصحيحة: المصادفة)، إذ يؤكّد في السطر الأوّل من كتابه: «بالصدفة أتيتُ إلى هذا العالم، وبالصدفة سأغادر هذا العالم. (...) ولو فتّشتَ تاريخ حياة أيّ إنسان، لوجدتَ أنّ نوعًا من الصدفة هو الذي تسبّب في ميلاده، (...) إلخ. وواهم إذن مَن يظنّ أنّ ثمّ ترتيبًا، أو عنايةً أو غاية» (١: ٥-٦). فهل هذا تعليم الدين الحنيف؟ وهلّا يوجد، بحسب هذا التعليم، ترتيبٌ للعناية الإلهيّة في مصيرنا؟

وما القول في موقف غريب يطلقه الدكتور العلّامة وهو يعلن، في معرض وصف سلوك أهل سويسرا من جهة العلاقات الجنسيّة (١: ٢٦٤) أنّه إذا شاء أحد الطرفين قطع علاقة الحبّ فلا حرج، «وإذا نجم عن الاتّصال الجنسيّ حَمْلٌ، فعلى المرأة وحدها أن تتحمّل نتائجه الآن، وقد كفلت لها وسائل منع الحمل أن تتجنّبه»؟! لا تعليق لنا على هذا الكلام، ونترك لذوي الفضل والألباب السليمة أن يدلوا بحكمهم!!

والأحكام الجائرة التي كثيرًا ما يطلقها الدكتور بدويّ يمنةً ويسرةً

بدون تمييز وتروّ طاولت البلدان والشعوب بعد رجال الدين وشعائرهم. فانظر إليه يقول في اللبنانيّين وبخاصّة المسيحيّين منهم: «صار السُّعار لتكديس المزيد من الأموال هو الدافع الرئيسيّ في تصرّفات اللبنانيّين (. . .). فصار الموارنة يتنافسون في خطب ودّ السعوديّة والكويت وسائر دول البترول الغنيّة في الخليج، رغم أنّها دول إسلاميّة سنّيّة خالصة، لكنّ المسيحيّين في لبنان صاروا على دين الدولار، لا على دين المسيح» (٢: ١٩١). ونحن بالطبع، من الشاكرين لحضرة الدكتور المؤمن التقيّ غيرتَه على ديننا، ولا نفهم في الوقت ذاته لماذا يتعجّب إذا ما تعاطى رجال الأعمال المسيحيّون مع أمثالهم السنّيّين الخالصين.

كما نعجب أشدّ العجب ممّا زاده بعد ذلك، إذ قال: «ولهذا السبب - أي السُّعار إلى الكسب الوفير - غَضَّ الموارنة والمسيحيّون بعامّة النظر عن بعض مظاهر النشاط المسلّح والتجاوزات التي بدأ الفلسطينيّون يحدثونها في لبنان» (٢: ١٩١-١٩٢). إنّك، يا سيّدي، والحقيقة على طرفَي نقيض. سل أيّ مؤرّخ غِرّ، أو صحافيّ مبتدئ، عمّن كان أوّل المحتجّين على الظهور المسلّح الفلسطينيّ، يأتك الجواب واضحًا، وعلى كلّ حال، مغايرًا لما أعلنْت!

٤. الأغلاط اللغويّة في الكتاب

وقبل طيّ صفحات مراجعتنا، لا بدّ من كلمة في أغلاط الكتاب اللغويّة. وقد يبدو هذا الأمر غير ذي شأن إذا ما قيس بمسألة المضمون، ولكنّنا نريد أن نلفت نظر الدكتور بدويّ إلى تلك الثغرات التي ظهرت بالعشرات في كتابه لأنّه، كما بدا لنا وأعلنه مرارًا، لا يحبّ الأدباء غير المحلّقين، وقد انتقد بضراوة مستوى أساتذة «معهد الآداب الشرقيّة وخرّيجيه»، كما ثلب عددًا كبيرًا من الكتّاب والأساتذة زملائه، لا سيّما المرحوم الدكتور زكي نجيب محمود، إذ اعتبر أنّ مقالاته لا تليق بتلميذ في المرحلة الإعداديّة (أي المتوسّطة بحسب النظام اللبنانيّ). فإلى حضرته بعض الأغلاط التي نرجو تصحيحها في طبعة لاحقة:

٥ أغلاط عربيّة: لا يقال: نفس العنوان (١: ١٠٠)، بل العنوان نفسه؛ ولا يقال: نفس الفترة (٢: ١٧٩)، نفس العدد (٢: ١٩٠)...

ولا يقال: إلتقيت بالكاردينال (٢: ١٨٠)، بل التقيت الكاردينالَ؛ ولا: إلتقى بالملك (٢: ١٨٥)، التقيت ببعض الرهبان (٢: ٢٠٣)...

ولا يقال: أجْمَل وأنضر شباب روما (٢: ٢٠٢) بل: أجمل شبّان روما وأنضرهم.

ولا يقال: ذكر لي أثناء لقائنا (١: ١٩٩)، بل: ذكر لي في أثناء...

ولا يقال: التاريخ السياسيّ لإيران الحديثة (٢: ٢٦٩) وهي صيغة ركيكة جدًّا، بل: تاريخ إيران الحديثة السياسيّ، أو: إيران الحديثة وتاريخها السياسيّ.

ولا يقال: أقول أنّني (١: ١٦٧)، بل: أقول إنّني.

ولا يقال: أضللتَهم بجهلك بالألمانيّة (١: ١٦٥)، بل: أضللتهم بجهلك الألمانيّةَ.

ولا يقال: نظرًا للنجاح (١: ١٦٤)، بل نظرًا إلى النجاح.

ولا يقال: يثير المشاكل دون فائدة (٢: ١٨١)، بل... بدون (أو من دون) فائدة.

ولا يقال: معاوية ابن أبي سفيان (١: ١٦٥)، بل معاوية بن أبي سفيان.

ولا يقال: رابعة البدويّة (١: ١٦٣)، بل رابعة العدويّة (ولعلّ هذا الغلط هو سهو).

وإذ نكتفي بهذه الأمثلة، نشير إلى الأغلاط باللغات الأجنبيّة.

٥ الأغلاط في الكتابات بالأجنبيّة: رأينا أنّ الدكتور بدويّ جاهر واعتزّ بإتقانه اللاتينيّة، وأنّه درس ودرَّس في كثير من بلدان العالم،

ولا شكّ في أنّه أتقن لغاتها. نساهمة منّا في تحسين طبعة كتابه الثانية، نلفت نظره إلى عدد من تلك الشوائب، أوردناه على سبيل المثال لا الحصر:

- باللاتينيّة: (١: ١٠٦): النشيد المعروف بـ Stabat Mater، وقد ذكر منه ١٧ كلمة، شُحِن بـ ٩ أغلاط: Jukta (والصحيح juxta)، pendabat filims (الصحيح pendebat filius)، genentem (gementem)، debentem (dolentem)، pertransivit (pertrausivit)، إلخ. ثمّ في (١: ١١٥): niores (mores)؛ (١: ٥٢): veh victi (vae victis)؛ (٢: ٢٠١): Collegrinu Romanum (Collegium Romanum)؛ إلخ...

- بالإيطاليّة: (١: ٥٤): Mossolini (Mussolini)؛ (١: ١٠١): Palazza Vecskio (Palazzo Vecchio)، Danté (Dante)؛ (٢: ١٩٩): Jiuseppe G. (Giuseppe G.)؛ (٢: ٢٠٠): Institute Biblico (Istituto Biblico)؛ إلخ...

- بالإنكليزيّة: (٢: ٢٢٧): Newtoun (Newton)؛ (٢: ١٤٤): Toymbee (Toynbee)؛ (١: ١٤٢): T.E. Laurence (T.E. Lawrence).

- بالألمانيّة: (١: ٧٧): Isabella strusse (İsabellastrasse)؛ ١٠: ٨٢): anselm Fewerback (Anselm Feuerbach)؛ (١: ١٥٢): Haidegger (Heidegger)؛ إلخ...

- بالفرنسيّة: (١: ٦٨): Montherlane (Montherlant)؛ (١: ١٠٣): Incuvables (Incunables)؛ (١: ٢٠١): شارع أتّاس Assus (شارع أسّاس Assas)؛ والكثير الكثير نذكر بعضه بدون الإشارة إلى الصفحات لعدم إتعاب القارئ: Vouges (Vosges)، J. Anouich (J. Anouilh)، Jodot (Godot)، M. Thorz (M. Thorez)، F. Diglantine (F. d'Eglantine)، Aric Rouleau (Eric Rouleau)، Oichegry (Pichegru)، إلخ، إلخ...

وإنّنا لا نشكّ في أنّ بعض الأغلاط التي ذكرناها هي من الأخطاء الطباعيّة، ولكن، هل يُعقَل أن تكون العشرات، بل المئات التي واجهناها

هي من مسؤوليّة الطابع وحده؟ إذن لكان من واجب المؤلّف تصحيحها لأنّ كثرتها مزعجة حقًا تنفّر القارئ ولا تليق بمستوى صاحب الكتاب.

الخاتمة

لعلّنا أطلنا في استعراضنا سيرة الدكتور بدويّ، ولكن ما حيلتنا، وقد تطرّق حضرته إلى عشرات الأمور الحسّاسة على نحو لا يمكن السكوت عنه. وبالحقيقة إنّنا اختصرنا الردّ، مؤثرين الاجتزاء المقلّ على الإسهاب المملّ. وقد اجتهدنا أن نستند في كلٍّ من أجوبتنا إلى البراهين الموضوعيّة التي كثيرًا ما غابت عن تهجّمات صاحب السيرة. وأملنا، إذا ما أصدر جزأه الثالث - إذ أكّدوا لنا الأمر، إلّا أنّنا لم نرَ الكتاب حتّى الساعة - أن يخفّف من حدّة لهجته، ويقلّل من اتّهاماته ولا يسوقها مغلوطةً، بل مشفوعة ببراهين موضوعيّة أكيدة. كما أنّنا نشير عليه بإدخال تحسين عمليّ على كتابه، وهو أن يضع له فهرسًا بالمحتويات وقد غاب مثيلاه عن الجزأين الأوّلَين. والله وليّ التوفيق.

من منشورات دار المشرق